الفصل الثالث

حافظ إبراهيم شاعر مصر الاجتماعى

يتميز شاعر النيل حافظ إبراهيم عن غيره من شعراء عصره بأنه عرف كيف يساير عواطف أبناء وطنه، فضرب على الوتر الحساس، وبلغ من نفس الشعب المصرى كل مظاهر الحب والتقدير والإجلال. لقد نشأ حافظ يتيما فقيرا كما نشأ كثير من الأفذاذ والعباقرة، وأحاطت بحياته كل الظروف الصعبة، وساير أخلاق المصريين وعاداتهم وآدابهم فأضحكهم وأبكاهم خلال نقده لحياتهم الاجتماعية والسياسية بأسلوبه اللاذع من خلال شعره الاجتماعى فكان جريئا فى مواجهة مواطنيه صريحا فى الجهر بذلك فصور روح الشعب الموجع الحزين ومشاكله الاجتماعية فى أسى ودهشة.

وإلى جانب ذلك فقد كان شاعرا مدافعا عن وطنه، داعيا إلى إصلاحه ورفعة شأنه بطريقة أجاد فيها وصف أحوال بلاده إجادة الرسام الماهر ولا غرو فقد تتلمذ على يد "الشيخ محمد عبده" وتأثر بأفكار " قاسم أمين" و"سعد زغلول" و "البارودى" وغيرهم، فكانت لكتاباته إلى جانب أشعاره مجموعات من الكلمات فيها التعريض اللازم والسخرية البالغة التى يرسلها كما يرسل كاتب قصائد المدح إلى ممدوحه وهى فى الوقت نفسه ذم وانتقاص وقد وصف ذلك فى أشعاره كما وصفه فى كتابه "ليالى سطيح" الذى كتبه بعد وفاة صديقه الشيخ محمد عبده ووصف فيه ما يجول بخاطره من هموم وأشجان وتحدث عما يدور فى الحياة المصرية متعرضا لأخلاق الناس وغفلتهم عن مصالحهم وإهمالهم لحقوق وطنهم، وعن ضرورة

استثارة الهمم فى نفوسهم، واستفزاز هذه النفوس لتهـذيبهم وإصـلاحهم. والجدير بالذكر أن حافظ ابراهيم لم يكن شاعر مصر وحدها بل كان شاعر العربية قاطبة على الرغم من لقب "شاعر النيل" الذى أطلقه عليه بعـض الأدباء والصحفيين.

لقد استغرق شعر حافظ الاجتماعى معظم ما كتبه فى ديوانه فقد أمضى حياته ينظم فيه بعد اتصاله بقادة الفكر كالإمام محمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم وكان حافظ يـردد دائمـا أن هـؤلاء المفكرين قالوا له إذا نظمت فانظم مثل هذا الشعر الاجتماعى. ولذلك كان متفردا بهذه الطريقة. وكان يقول دائما ان الـشاعر الـذى لا يـنظم فـى الاجتماعيات ليس عندى بشاعر.

لذلك كان يجلس مع هؤلاء المفكرين وغيرهم ويقتبس مـنهم الأفكـار فيبنى عليها ويدخلها فى شعره.

وبالرغم من المشاكل الاجتماعية التى عرضها حافظ فى شعره مرتبطة بزمنه إلا أنها تكاد تكون مشاكل دائمة ما زلنا نعانى منها بشكل أو بآخر، فهى متصلة بنفوسنا وجدناها أمامنا ووجدنا الشعر الذى يتحدث عنها وكأنه وضع لزماننا.

فإذا تعرضنا للقصائد الاجتماعية عند حافظ، نجدها تتسع لتـشمل كـل عيوب المجتمع التى كان يسعد المحتلين انتـشارها فـى جـسد المجتمـع المصرى، حتى يبقى دائما مجتمعا متخاذلا ومتواكلا ومحتاجا للغير. فـإذا وقفنا عند قصيدته على لسان اللغة العربية التى نشرها فى سنة ١٩٠٣ نجد ان الذى دفعه إليها ما رآه من عمل المستعمرين على إماته اللغة العربيـة

وبعث اللغة الانجليزية حتى يفصلوا مصر عن غيرها من البلاد العربية. وقد ثار حافظ منددا بهذه السياسة ممتدحا اللغة العربية الفصحى لغة القرآن. وأخذ يحمس المصريين ويدفعهم إلى الوقوف فى وجه الداعين إلى هذه الغاية ويحذرهم من آثار الفرنجة الجارفة التى أصابت البلاد.

لقد فهم حافظ تماما أن هجر اللغة العربية لا يقصد منه إلا كسر شوكة القومية، وإحلال الإنجليزية محل العربية حتى لا يصبح لنا تراث ثقافى نعتز به، وتأوى إليه نفوسنا. لذلك كتب هذه القصيدة التى يبرز فيها على لسان اللغة العربية سخريتها واستهجانها لما يقوم به بعض أبنائها من هجرها والالتجاء إلى اللغات الأجنبية الوافدة فيقول:

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى ... ونادیت قومی فاحتسبت حیاتی
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى ... عقمت فلم أجزع لقول عداتى
ولدت ولما لم أجد لعرائسى ... رجالا وأكفاء وأدت بناتى
وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وما ضقت عن أى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل سالوا الغواص عن صدفاتى
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى ... ومنكم وإن عز الدواء أساتى
فلا تكلونى للزمان فإننى ... أخاف عليكم ان تحين وفاتى
أرى لرجال الغرب عزا ومنعة ... وكم عز أقوام بعز لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادى بوأدى فى ربيع حياتى
ولو تزجرون الطير يوما عملتم ... بما تحته من عثرة وشتات

سقى الله فى بطن الجزيرة أعظما ... يعز عليها أن تلين قنـــاتـــى
حفظن ودادى فى البلى وحفظتـــه ... لهن بقلب دائم الحســـرات
وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الأعظم النخـــرات
أرى كل يوم بالجرائد مزلقا ... من القبر يدنينى بغيـــر أنـــاة
واسمع للكتاب فى مصر ضجة ... فأعلـــم أن الصائحين نعـــاتى
أيهجرنى قومى- عفا الله عنهم ... إلى لغـــة لم تتصـــل بـــرواة
سرت لوثة الأفرنج فيها سرى ... لعاب الأفاعى فى مسيل فرات
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشكلة الألوان ومختـــلفـــات
إلى معشر الكتاب والجمع حافل ... بسطت رجائى بعد بسط شكاتى
فإما حياة تبعث الميت فى البلى ... وتنبت فى تلك الرموس رفاتى
وإما ممات لا قيامة بعده ... ممات لعمرى لم يقس بممـــات

واستمر حافظ يدافع عن اللغة العربية ويطالب المصريين التمسك بهـــا لدرجة ان أمير الشعراء احمد شوقى قال عنه:

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها ... وأمام من نجلـــت من البلغـــاء
مازلت تهتـــف بالقديـــم وفضـــله ... حتى حميـــت أمانـــة القدمـــاء
خلفـــت فى الدنيـــا بيانـــا خالـــدا ... وتركـــت أجيـــالا من الأبنـــاء
وغدا سيذكـــرك الزمان ولم يزل ... للدهر إنصـــاف وحسن جزاء

ويستمر حافظ فى الدفاع عن أهل وطنه وتراثهم ومقدســـاتهم فيتوجـــه بقصيدة إلى سعد زغلول ناظر المعارف آنذاك، وينعـــى علـــى الحكومـــة إغفالها التعليم وأخذها برأى المستشار البريطانى " دنلوب"

قد قـام بينهـم وبيـن العلم ضيـق الحـال سدا

فاردد لنـا عهد الإمام وكن بنـا الرجل المفـدى

ثم يكشف السر فى هذا التخلف ويرده إلى رغبة الاحتلال فـى تخلفنـا ولكنه لا يلوم الاحتلال بل يلوم الحكومة الموالية للاحتلال :

أنـا لا ألـوم المستشـار إذا تـعلل أو تصدى

فسبيـله أن يستبـد وشـأننـا أن نستعـدا

هى سنـة المحتـل فى كل العصور وما تعدى

ويستمر حافظ فى ترقب الأحداث الاجتماعية ليتخذها مادة يصل عـن طريقها إلى إظهار العيوب التى تنهش جسم المجتمع المصرى فقد قامـت فى مصر ضجة حول أغرب قصة زواج فى تاريخ مصر والتى أحـدثت زلزالا هائلا فى كيان الشعب المصرى وأثـارت زوبعـة أثارهـا زواج الصحفى الشيخ على يوسف صاحب المؤيد فى عام ١٩٠٤ من ابنة الشيخ عبد الخالق السادات شيخ السادة الوفائية. على غير رغبة الأخيـر بـسبب مستوى الزوج الذى لا يؤهله لهذا الزواج. وحدث ان عقد العقد دون علـم الأب. فرفع والد الزوجة الأمر إلى المحكمة الشرعية طالبا فسخ العقد لعدم الكفاءة فى النسب بين الزوجين فكيف يتزوج جورنا لجى من بيت حـسب ونسب ومع أن الشيخ على يوسف أثبت شرف نسبه، فان الأهواء السياسية لعبت فى قضية الزوجية دورا هاما شغل الرأى العام والصحافة والشعراء فقد ساند الخديوى عباس الثانى على يوسف بينما وقف مـصطفى كامـل ضده فى ذلك الحادث وقد نظم حافظ قصيدة ينعى فيها علـى المـصريين وجمودهم ، واستمساكهم بالتقاليد، وما هم عليه من فوضـى فـى الـرأى

بأسلوب يحمل منابع الحسرة فى نفسه بشكل خرج عن المألوف وبنقد لاذع. فيتحدث عن هذه القضية ويبدأ قصيدته عاتبا على مصر ومنتقدا لحياة المصريين الاجتماعية فيقول:

وحطمت اليراع فلا تعجبى ... وعفت البيان فلا تعتبى
فما أنت يا مصر دار الأديب ... ولا أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يا مصر من كاتب ... أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذليني لهذا السكوت ... فقد ضاق بى منك ما ضاق بى
أيعجبنى منك يوم الوفاق ... سكوت الجماد ولعب الصبى؟
وكم غضب الناس من قبلنا ... لسلب الحقوق ولم تغضب
أنابتة العصر إن الغريب ... مجد بمصر فلا تلعبى
يقولون : فى النشئ خير لنا ... وللنشئ شر من الأجنبى
أفى (الأزبكية) مثوى البنين ... وبين المساجد مثوى الأب؟
(وكم ذا بمصر من المضحكات) ... كما قال فيها (أبوالطيب)
أمور تمر وعيش يمر ... ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحات ... فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب ... وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير ... ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ... ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين ... على غير قصد ولا مأرب
وقالوا : دخيل عليه العفاء ... ونعم الدخيل على مذهبى
رأنا نياما ولما نفق ... فشمر للسعى والمكسب

وماذا عليه إذا فاتنا ... ونحن على العيش لم ندأب
ألفنا الخمول ويا ليتنا ... ألفنا الخمول ولم نكذب
وقالوا: (المؤيد) فى غمرة ... رماه بها الطمع الأشعبى
دعاة الغرام بسن الكهول ... فجن جنونا ببنت النبى
فضج لها العرش والحاملوه ... وضج لها القبر فى يثرب
ونادى رجال بإسقاطه ... وقالوا : تلون فى المشرب
وعدوا عليه من السيئات وقالوا ... ألوفا تدور مع الأحقب
وقالوا لصيق ببيت الرسول ... أغار على النسب الأنجب
وزكى (أبو خطوة) قولهم ... بحكم أحد من المضرب
فما للتهانى على داره ... تساقط كالمطر الصيب؟
وما للوفود على بابه ... تزف البشائر فى موكب
وما للخليقة أسدى إليه ... وساما يليق بصدر الأبى؟
فيا أمة ضاق عن وصفها ... جنان المفوه والأخطب
تضيع الحقيقة ما بيننا ... ويصلى البرئ مع المذنب
ويهضم فينا الإمام الحكيم ... ويكرم فينا الجهول الغبى
على الشرق منى سلام الودود ... وإن طأطأ الشرق للمغرب
لقد كان خصبا بجدب الزمان ... فأجدب فى الزمن المخصب

ويشير حافظ إلى الاتفاق الودى الذى تم بين انجلترا وفرنسا عام ١٩٠٤ والذى أباح لانجلترا إطلاق يدها فى مصر فيقول:

أيعجبنى منك يوم الوفاق ... سكوت الجماد ولعب الصبى؟

obeikan.com

وكم غضـــب الناس من قبلنـــا لسلب الحقـــوق ولم نغضـــــب

ويسخر حافظ ابراهيم من نفاق البعض وما يراه من فوضـــى الـــرأى فيقول صارخا:

(وكم ذا بمصر من المضحكات) كمـــا قال فيهـــا "أبو الطيب"
أمـــور تمـــر وعيـــش يمـــــر ونحن من اللهـــو فى ملعـــب
وشعـــب يفر مـــن الصالحـــات فرار الســـليم مـــن الأجـــرب

ثم يلتفت إلى الصحافة ويندد بموقفها من الشيخ على يوسف فيقول:

وصحـــف تطـــن طنين الذباب وأخـــرى تشن على الأقـــرب
وهذا يلوذ بقصـــــر الأميـــــر ويدعـــــو إلى ظله الأرحـــب
وهذا يلوذ بقصـــــر السفيـــــر ويطنـــب فى ورده الأعـــــذب

فحافظ يسخر هنا من سوءات الشعب المتقلب، الذى اجتمع نفاقه ورضاه على شئ واحد، ثم يلتفت إلى الأدباء الذين يجذبون الناس إليهم بتلاعـــبهم بالألفاظ فيخلطون الباطل بالحق ، مما يؤثر على الحقيقة فيقول:

وأديـــب قـــوم تستحـــق يمينـــه قطـــع الأنامل أو لظى الإحراق
يلهو ويلعـــب بالعقـــول بيـــانـــه فكأنـــه فى الســـحر رقية راقى
فى كفـــــه قلـــم يمـــج لعـــابـــه ســـمـــا وينفثـــه علـــى الأوراق
يرد الحقـــائق وهى بيض نصع قـــدسيـــة علـــويـــة الإشـــراق
فيردهـــا سوداء علـــى جنبـــاتها مـــن ظلمـــة التمويه ألف نطاق

obeikan.com

عريـــت عن الحق المقدس نفسه فـــحياته ثقـــل علـــى الأعنـــاق
لو كـــان ذا خلـــق لأسعـــد قومه ببيـــانه ويـــراعـــه السبـــاق

وقد فند حافظ أفكار هؤلاء ووقف ضد محاولاتهم تقسيم الـــرأى العـــام والساسة وأهل الرأى موقف المخاصم، والمقاطع والمهاجم والمهادن.

وقد تعرض حافظ بسبب هذه القصيدة للهجوم فاتهمه البعض بانـــه لـــم يتعمق درس المشكلات الاجتماعية عندما تحدث عن قضية الزوجية وذلك أنه لم يبين إهدار حرية الفتاة فى أن تتزوج بمن تحب، ولـــم يـــشر إلـــى التمسك التقليدى بالأنساب والاحساب. فوقف بذلك وقفة المتشكك من كـــل محاولة للإصلاح بعد أن تفجرت قضية الزوجية بـــشكل هـــز المجتمـــع المصرى هزا عنيفا وقاسيا.

ولما راودت فكرة التعليم الجامعى خلد المصريين وأجمع قادة الإصلاح بينهم على إنشاء جامعة وقرروا جمع التبرعات من أجل ذلك ناشد حـــافظ ابراهيم الأغنياء على التبرع بقوله:

إن كنتم تبذلون المال عن رهب فنحن ندعوكم للبذل عن رغـــب

وهو يرى ان الجامعة دار العلم العميم الذى يؤدى إلى تنوير المجتمـــع وأنها كالشهاب بجانب تلك الكتاتيب والمدارس التى يـــشبهها بالمـــصابيح فقال:

ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد ذر الرمـــاد بعيـــن الحاذق الأرب
فأنشئوا ألف كُتَّابٍ وقد علموا أن المصابيح لا تغنى عن الشهب

وكان يرى أن الجامعة ضرورية للأمة حتى تجد حاجتها من المتخصصين الأكفاء الذين تعلموا فن العلوم الحديثة فقال:

ومن يميط ستار الجهل إن طمست معالم القصد بين الشك والريب
فما لكم أيها الأقوام جامعة إلا بجامعة موصولة السبب

ويتعجب فى آخر القصيدة من حال مصر ويتمنى أن يراه عزيز الجانب موفور الغنى متحررا من قيود الجهل والعادات البالية العتيقة فيقول:

متى نراه وقد باتت خزائنه كنزا من العلم لا كنزا من الذهب
هذا هو العمل المبرور فاكتتبوا بالمال إنا اكتتبنا فيه بالأدب

وهو يشير فى هذا الشعر إلى جهود الطبقة المفكرة فى تشجيع المشروع والدعوة إلى نجاحه. وقد كانت جريدة اللواء توجه إلى التعليم العالى اهتماما خاصا حيث تبنى مصطفى كامل هذه الفكرة ودعا إليها على صفحات هذه الجريدة منذ عام ١٩٠٤، وناشد المحبين لارتقاء البلاد على المساهمة فيها، كما عمل سعد زغلول وقاسم أمين من أجل إنجاح مشروع الجامعة، ومن أجل اللغة العربية واعتبارها لغة قومية. وساعد على هذا انتقاد الشيخ على يوسف للسياسة الانجليزية فى التعليم فى جريدة المؤيد.

وكانت كل هذه الآراء تنصهر فى بوتقة حافظ الشعرية لتخرج قصائد تطالب بإصلاح التعليم وإنشاء الجامعة المصرية الحديثة.

أما عن الوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط فقد نالت من شعر حافظ الكثير حيث دعا إلى الوحدة الوطنية والتسامح بين الأديان قائلا:

وبعد أن استفحل الداء واستشرى عندما ثارت الفتنة بين أبناء الأمة فى سنة ١٩١١ لأسباب مصطنعة مفتعلة ، استغلها الإنجليز كوسيلة لتبرير احتلالهم لمصر بحجة المحافظة على الأمن، كما استخدموها لتمزيق وحدة الصفوف بالتفرقة والفتنة حيث داب السير "الدون جورست" المعتمد البريطانى فى مصر على ضرب الوحدة القومية المصرية. ورأى بدهائه أن يستنزف قوتها بالتفرقة حتى تخبو جذوتها فسارت سياسته على وجهين: وفاق مع الخديوى عباس الثانى ومؤامرات للتفرقة بين أبناء الشعب الواحد. واتخذ لهذا الغرض من بعض الصحف الموالية للاحتلال سندا فى إثارة النفوس إلى التنابذ والخصام. كما استغل بعض ضعاف النفوس حادثة مقتل "بطرس غالى" رئيس النظار فى إشعال هذه الحركة. وعقد مؤتمر قبطى بأسيوط ومؤتمر إسلامى بالقاهرة ردا على المؤتمر القبطى. ولكن المصريين بما جبلوا عليه من التسامح الدينى استطاعوا أن يفوتوا على المحتل غرضه فى الوقيعة بين المصريين، وردوا كيده إلى نحره، مما أسدل على هذه الفتنة الستار دون أن تخلف أثرا فلم يخرج الأمر عن كونه خلافا عارضا قام بين أبناء مجتمع واحد وانتهى بتدخل عقلاء الأمة وقد وقف حافظ ابراهيم خلال ذلك مهتز الوجدان هائج الخاطر يشعر بالاشفاق على وطنه.

وينتهز حافظ عودة الخديوى عباس من دار الخلافة سنة ١٩١١ فيشير فى قصيدته التى هنأه بها إلى خلاف المسلمين والأقباط داعيا إياه إلى العمل على تلافيه حيث يقول:

كم تحت أذيال الظلام متيم ... دامى الفؤاد وليلة لا يعلم
ما أنت فى دنياك أول عاشق ... راميه لا يحنو ولا يترحم
أهرمتنى يا ليل فى شرخ الصبا ... كم فيك ساعات تشيب وتهرم
لا أنت تقصر لى ولا أنا مقصر ... أتعبتنى وتعبت، هل من يحكم؟
لله موقفنا وقد ناجيتها ... بعظيم ما يخفى الفؤاد ويكتم
قالت: من الشاكى؟ تسائل سربها ... عنى، ومن هذا الذى يتظلم؟
فأجبنها وعجبن كيف تجاهلت: ... هو ذلك المتوجه المتألم
أنا من عرفت ومن جهلت ومن له ... لولا عيونك – حجة لا تفحم
أسلمت نفسى للهوى وأظنها ... مما يجشمها الهوى لا تسلم
وأتيت يحدو بى الرجاء ومن أتى ... متحرما بفنائكم لا يحرم
أشكو لذات الخال ما صنعت بنا ... تلك العيون وما جناه المعصم
لا السهم يرفق بالجريح ولا الهوى ... يبقى عليه ولا الصبابة ترحم
لو تنظرين إليه فى جوف الدجى ... متململا من هول ما يتجشم
يمشى إلى كنف الفراش محاذرا ... وجلا يؤخر رجله ويقدم
يرمى الفراش بناظريه وينثنى ... جزعا ويقدم بعد ذلك ويحجم
فكأنه – واليأس ينشف نفسه – ... للقتل فوق فراشه يتقدم
رشقت به فى كل جنب مدية ... وأنساب فيه بكل ركن أرقم
فكأنه فى هوله وسعيره ... واد قد أطلعت عليه جهنم
هذا وحقك بعض ما كابدته ... من ناظريك، وما كتمتك أعظم
قالوا: أهذا أنت! ويحك فاتئد ... حتام تنجد فى الغرام وتتهم
كم نفثه لك تستثير بها الهوى ... (هاروت فى اثنائها يتكلم)

إنا سمعنا عنك ما قد رأبنا ... وأطال فيك وفى هواك اللوم
فاذهب بسحرك قد عرفتك واقتصد ... فيما تزين للحسان وتوهم
أصغت إلى قول الوشاة فأسرفت ... فى هجرها وجنت على وأجرموا
حتى إذا يئس الطبيب وجاءها ... أنى تلفت تندمت وتندموا
واتت تعود مريضها لا بل أتت ... منى تشيع راحلا لو تعلم
أقسمت (بالعباس)، إنى صادق ... فمريهم بجلاله أن يقسموا
ملك عدوت على الزمان بحوله ... وغدوت فى آلائه اتتغم
النجم من حراسه ، والدهر من ... خدامه ، وهو العزيز المنعم
هللت وحين رأيت ركبك سالما ... ورايت (عباسا) به يتبسم
وحمدت ربى حين حل عرينه ... متجدد العزمات ذاك الضيغم
خفقت قلوب المسلمين واشفقت ... دار الخلافة والمليك الأعظم
ودعا لك البيت الحرام فأمنت ... بطحاء مكة الحطيم وزمزم
ودوى بمصر لك الدعاء فنيلها ... وسهولها وفصيحها والأعجم
ومشى الصغير إلى الكبير مسائلا ... يتسقط الأخبار أو يتنسم
حتى اطمأنت بالشفاء نفوسهم ... وطلعت بالسعد العميم عليهم
مولاى أمتك الوديعة أصبحت ... وعرا المودة بينها تتفصم
نادى بها القبطى ملء لهاته ... أن لا سلام وضاق فيها المسلم
وهم أغار على النهى وأضلها ... فجرى الغبى وأقصر المتعلم
فهموا من الأديان مالا يرتضى ... دين ولا يرضى به من يفهم
ماذا دها قبطى مصر فصده ... عن ود مسلمها وماذا ينقم؟
وعلام يخشى المسلمين وكيدهم ... والمسلمون عن المكايد نوم

وفى نهاية القصيدة يؤكد حافظ اشتراك المصريين جميعا فى ما تتعرض له مصر من متاعب:

قد ضمنا ألم الحياة وكلنا يشكو، فنحن على السواء وأنتم
إنى ضمين المسلمين جميعهم أن يخلصوا لكم إذا أخلصتم
رب الأريكة، إننا فى حاجة لجميل رأيك والحوادث حوم
فأفض علينا من سمائك حكمة تأسو القلوب فإن رأيك أحكم
واجمع شتات العنصرين بعزمة تأتى على هذا الخلاف وتحسم
فكلاهما لعزيز عرشك مخلص وكلاهما برضاك صب مغرم

وإلى جانب هذه المسائل الاجتماعية المتصلة بسياسة البلاد، التى أدت إلى تخلف مصر عن ركب المدنية وكانت سببا فى أن يرمينا المتعصبون من أهل الغرب بالتأخر والتخلف. ويتهمون الدين الإسلامى أنه بتعاليمه سبب تخلف الشرقيين، وأن تعاليمه تحد من تقدمهم الحضارى، ومواكبة المدنية والسير فى ركابها. نجد حافظ ابراهيم يقف فى وجه المتحاملين على الإسلام، ويرد عليهم بالحجة والدليل القاطع موضحا ان سر تأخر فى الشرق لا يعود إلى طبيعة الإسلام وإنما الذنب ذنب البعض الذين لم يفهموا الإسلام على وجهه الصحيح ويستند فى ذلك إلى آراء الشيخ محمد عبده ويصفه بأنه حامى الإسلام والدين:

تباركت هذا الدين دين محمد أيترك فى الدنيا بغير حماة؟
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قناة الدين للغمزات

وهكذا وجه حافظ كشاعر اجتماعى همه لمحاربة العيوب الاجتماعية من تقاليد واهية ، وعادات توارثها المصريون فاستقرت فى وعينا الاجتماعى، واستحال معظمها إلى بدع مضلة رسبت فى نفوس الشعب ورسخت. وكان حافظ ينهج فى محاربة هذه البدع من آراء الأستاذ الإمام فى الإصلاح الدينى والاجتماعى. فيهاجم هذه البدع التى كان لها أكبر الأثر فى تأخر الناس وتدهور أحوالهم فينتقد زيارة أضرحة الأولياء، ويبين أنهم لا ينفعون ولا يضرون، ويتهكم من الساعين إليها، الذين ينذرون النذور ويتوسلون إليها فى قضاء الحاجات:

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم ... وبألف ألف ترزق الأموات
من لى بحظ النائمين بحفرة ... قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الأنام لها ويجرى حولها ... بحر النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ... ووسيلة تقضى بها الحاجات

ويتعرض حافظ لأرباب الطرق فى الموالد ويكشف الستار عن الأساليب التى يتبعها هؤلاء فينسبون إلى الأولياء الكثير من الكذب والبهتان ويوقعون العامة بألاعيبهم فيقول:

كم عالم مد العلوم حبائلا ... لوقيعة وقطيعة وفراق
وفقيه قوم ظل يرصد فقهه ... لمكيدة أو مستحل طلاق
يمشى وقد نصبت عليه عمامة ... كالبرج لكن فوق تل نفاق
يدعونه عند الشقاق وما دروا ... أن الذى يدعون خدن شقاق

وهكذا كان حافظ حربا على كل لون من ألوان الفساد الاجتماعى. فقد هاجم الرشوة والمرتشين مبينا بأن ذلك يؤدى بالبلاد إلى فساد الحال، وانعدام الأمانة واستشراء المحسوبيات والاستثناءات التى تكون دائما على حساب الوطن ومصالح الفقراء ومما يزيد الأمر خطورة يذكر حافظ أن هؤلاء المرتشين هم موظفو الدولة المتعلمون فيقول هل يصلح العلم عاريا من الأخلاق، كما يتعرض لذلك فى قصيدته بقوله:

والعلم إن لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الإخفاق
لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق

ويهاجم حافظ الأطباء الذين لا يراعون فى عملهم مبادئ الإنسانية وقوانين مهنتهم الشريفة التى تتطلب النزاهة والرحمة والشفقة والرأفة بالمرضى من الفقراء والضعفاء:

وطبيب قوم قد أحل لطبه ما لا تحل شريعة الخلاق
قتل الأجنة فى البطون وتارة جمع الدوانق من دم مهراق
أغلى وأثمن من تجارب علمه يوم الفخار تجارب الحلاق

ويهاجم حافظ التواكل والتساهل بين الناس ويستمر مصورا رغبته فى إصلاح المجتمع الذى شاعت فيه روح التخاذل ويقسمهم فريقين فريقا يطير مع الخيال ويحلم بتحقيق الآمال، وفريقا يرتجل النوادر ويرسل النكات على وفق مقتضى الحال:

هذا يطير مع الخيال وذاك يرتجل النوادر

ما هـد عـزم القادريـن بمصـر إلا قـول باكـر

وقد أولى حافظ هذا الداء الاجتماعى عنايته فبين أسـبابه وأعراضـه موضحا أنه داء عضال ينهش الشعب ويهد من كيانه:

سرى داء التواكل فيه حتى تخطف رزقه ذاك الزحام
قد استعصى على الحكماء منا كما استعصى على الطب الجذام

ويشير حافظ إلى أثر التواكل والتخاذل فى مستوى الحياة وإلى تخلـف الأمة المصرية وعدم وصولها إلى المكان اللائق بها فيقول:

إن فينا لولا التخاذل أبطا لا إذا ما هم استقلوا اليراعـا
وعقولا لولا الخمول تولا ها لفاضت غرابـة وابتداعـا
ودعاة للخير لو انصفوهم ملئوا الشرق عـزة وامتناعـا
كاشف الكهرباء ليتك تعنى باختراع يروض منا الطباعـا
آلة تستحق التواكل فى الشر ق وتلقى عـن الرياء القناعـا

وهو إذ يندد بتخاذل المصريين وقعودهم عن استغلال موارد بلادهـم ينعى عليهم تسليم أمورهم إلى الأجانب فيقول:

أمة قد فت فى ساعدها بعضهـا الأهل وحب الغربا

وقوله فى قصيدة أخرى:

وما الموت الزؤام إذا عقلنا سوى الشركات حل لها الحرام
لقد سعدت بغفلتنا فراحت بثروتنا وأولها (التـــــرام)

فيا ويل الفناة إذا احتواها بنو (التاميز) وانحسر اللثـــام

وحافظ فى نقده طائفة الأغنياء الذين انتهت إليهم الثروات، يوضـــح أن كل همهم هو الحصول على الألقاب فيقول:

وهل فى مصر مفخرة ســـــوى الألقاب والرتـــــب

ويحس حافظ بمرارة لهذه العيوب الاجتماعية التى التصقت بالمصريين ولم يحاولوا التخلص منها ولذلك نجده يطالب إيقاظهم من غفلتهم فيقول:

فهبـــوا من مراقدكم فإن الوقـــت مـــن ذهـــب

ويظل حافظ يرشد أبناء وطنه إلى الطريق الصحيح فيقول:

قم يا ابن (مصر) فأنت حر واستعد مجد الجدود ولا تعـــد لمراح
شمر وكـــافح فى الحـــياة فهـــذه دنيـــاك دار تنـــاحر وكفـــاح
وخض الحياة وإن تلاطم موجها خوض البحار رياضة السباح
واجعل عينيك قبل خطوك رائدا لا تحسبن الغمر كالصخضاح

ويطالبهم بالنظر إلى الغرب ويترسمون خطاه فيقول:

وانظر إلى الغربى كيف سمت به بين الشعوب طبيعـــة الكـــداح
والله ما بلغت بنو الغرب المنى إلا بنيـــــات هنـــاك صحـــاح
ركبوا البحار وقد تجمد ماؤها والجـــو بيـــن تنـــاوح الأرواح
والبر مصهور الحصى متأججا يرمى بنـــزاع الشـــــوى لواح
يلـــقى فتـــيهم الزمان بـــهمة عجب ووجه فى الخطوب وقاح

ويشق أجواز القفار مغامرا وعز الطريق لديه كالصحصاح

لقد خالط حافظ جميع طبقات الأمة رغم ما بينها من تفاوت فى الرزق والثقافة والطباع . وترسبت فى نفسه يتمه الباكر رواسب الماضى وما يتمتع به الأغنياء وأصحاب المكانة الممتازة من الأسر الكبيرة المعروفة. فينظر بعين التأمل إلى هذا التفاوت الطبقى، فالأغنياء الموسرون ينفقون ويتمتعون، ولا يكادون يحسون بؤس البائسين ولا شكوى المحرومين، فما هم فيه من غنى وثراء شغلهم عن إخوانهم الفقراء.

وبين هاتين الطبقتين المتفاوتين طبقة وسطى كافحت من أجل حياة أفضل وحاولت الوصول إلى منتصف الطريق.

وهذا التفاوت بين هذه الطبقات جعل التعاون بينها يكاد يكون نادرا. فالزكاة التى جعلها الله فى مال الغنى حقا معلوما للسائل والمحروم بخل بها الأغنياء وضنوا بها على الفقراء.

وبرزت مأساة هذا التناقض بين طبقات الأمة فى نفس حافظ الشاعرة التى ذاقت من البؤس ألوانا خلال طفولته فكان يشفق على الطبقة الفقيرة ويهاجم غلاء الأسعار فى صراحة وقوة فيقول:

أيها المصلحون ضاق بنا العيش ولم تحسنوا عليه القياما

عزت السلعة الذليلة حتى بات مسح الحذاء خطبا جساما

وغدا القوت فى يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما

هو لا يتوقف عند هذا الهجوم بل يعاوده من خلال القصيدة بصورة تثير النفوس وتبعث على السخط، مبينا أثر الحاجة وما تدفع إليه من ارتكاب الآثام:

أيها المصلحون أصلحتم الأر ض وبتم عن النفوس نياما
أصلحوا أنفسا أضر بها الفقر وأحيا بموتها الآثاما
وأغيثوا من الغلاء نفوسا قد تمنت مع الغلاء الحماما
أوشكت تأكل الهبيد من الفقر وكادت تذود عنه النعاما

وهو مع ثورته يبين سخريته المرة من المسئولين فيخاطبهم قائلا:

قد شقينا ونحن كرمنا الله بعصر يكرم الانعاما

ولما كان سوء الأحوال الاقتصادية يؤثر فى الفقراء بصورة تزيد حالتهم سوءا فقد طالب أصحاب القلوب الرحيمة بمد يد العون لتعين هؤلاء وتمسح عنهم البأساء وقدم شكره إلى جماعة رعاية الأطفال لما تقوم به من خدمات فأشاد بأعمال هذه الجماعة وأفضالها على الطفولة البريئة البائسة، والأمومة التعيسة.

ونراه يمجد هذه الإنسانية العالية التى تدفع جماعة رعاية الأطفال إلى التبرع بخدماتها لمن هو فى حاجة إليها دون كلل ولا استعلاء.

وقد أنشد حافظ فى هذا الحفل القصيدة التالية:

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال لا ، بل فتاة بالعراء حيالى
أمست بمدرجة الخطوب فما لها راع هناك وما لها من والى
حسرى، تكاد تعد فحمة ليلها نارا بأنات ذكين طوال
ما خطبها، عجبا، ولما خطبى بها؟ مالى أشاطرها الوجيعة مالى؟
دانيتها ولصوتها فى مسمعى وقع النبال عطفن إثر نبال
وسألتها: من أنت؟ وهى كأنها رسم على طلل من الأطلال

فتململت جزعا وقالت: حامـــل ... لم تدر طعم الغمض منذ ليالى
قد مات والدها، وماتت أمهـــا ... ومضى الحمام بعمها والخـــال
وإلى هنا حبس الحياء لسانهـــا ... وجرى البكاء بدمعها الهطـــال
فعلمت ما تخفى الفتاة وإنمـــــا ... يحنو على أمثالهـــا امثالـــــى
ووقفت أنظرها كأنى عابـــــد ... فى هيكل يرنو إلى تمثـــــال
ورأيت آيات الجمـــال تكفلـــت ... بزوالهن فوادح الا تقـــــال
لا شئ أفعل فى النفوس كقامـــة ... هيفاء روعها الأسى بهـــزال
أو غادة كانت تريك إذا بـــدت ... شمس النهار فأصبحـــت كالال
قلت: انهضى، قالت: أينهض ميت ... من قبره ويسير شـــن بالـــى
فحملت هيكل عظمها وكأننـــى ... حملت حين حملت عـــود خلال
وطفقت أنتب الخطـــا متيممـــا ... بالليل (دار رعاية الأطفـــال)
أمشى وأحمل بائسين : فطـــارق ... باب الحياة ومؤذن بـــزوال
أبكيهمـــا وكأنمـــا أنا ثالـــث ... لهما من الإشفاق والإعـــوال
وطرقت باب الدار لامتهيبـــا ... أحدا ولا مترقبا لســـؤال
طرق المسافر أب من أسفـــاره ... أو طرق رب الدار غير مبالـــى
وإذا بأصوات تصيح : الا افتحوا ... دقات مرضى مدلجيـــن عجال
وإذا بأيد طاهرات عـــودت ... صنع الجميل تطوعت فى الحـــال
جاءت تسابق فى المبرة بعضـــها ... بعضا لوجه الله لا للمـــال
فتناولت بالرفق ما أنا حامـــل ... كالأم تكلأ طفلها وتوالـــى
وإذا الطبيب مشمر وإذا بهـــا ... فوق الوسائد فى مكان عالـــى
جاءوا بأنواع الدواء وطوفـــوا ... بسرير ضيفتهم كبعـــض الآل

obeikan.com

وجثا الطبيب يجس نبضا خافتـا ... ويرود مكمن دائها القتـــــال
لم يدرحين دنا ليبلو قلبهـــــا ... دقات قلب أم دبيب نمـــــال
ودعتها وتركتها فى أهلهـــــا ... وخرجت منشرحا رضى البـال
وعجزت عن شكر الذين تجردوا ... للباقيات وصالح الأعمـــال
لم يخجلوها بالسؤال عن أسمها ... تلك المروءة والشعور العالـى
خير الصـنائع فى الأنام صنيعة ... تنبـــو بحاملها عن الإذلال
وإذا النـوال أتـى ولم يهرق له ... ماء الوجوه فذاك خير نـوال
من جاد من بعد السـؤال فإنه ... – وهو الجواد – يعد فى البخال
لله درهم فكم من بـائـس ... جم الوجيعة سيئ الأحـوال
ترمى به الدنيا ، فمن جوع ، إلى ... عرى ، إلى سقم ، إلى إقـلال
عين مسهدة وقلب واجـف ... نفس مروعة وجيب خالـى
لم يدر ناظره أعريانا يـرى ... أم كاسيا فى تلكم الأسمـال
فكأن ناحل جسمه فى ثوبـه ... خلف الخروق يطل من غربـال
يا برد ، فاحمل، قد ظفرت بأعزل ... يا حر، تلك فريسـة المغتـال
يا عين سحى، يا قبول تفطـرى ... يا نفس رقى يا مروءة والـى
لولاهم لقضى عليه شقـاؤه ... وخلا المجال لخـاطف الآجـال
لولاهم كان الردى وقفا علـى ... نفس الفقير ثقيـلة الأحمـال
لله در الساهرين على الآلـى ... سهروا من الأوجاع والأوجـال
القائمين بخير ما جاءت بـه ... مدنية الأديـان والأجيـال
أهل اليتيم وكهفه وحماتـه ... وربيع أهل البؤس والإمحـال
لا تهملوا فى الصـالحات فـإنكم ... لا تجهلون عواقب الإهمـال

إنى ارى فقراءكم فى حاجـــة – لو تعلمون – لقائل فعـــــال
فتسابقوا الخيرات فهى أمامكم ميدان سبق للجـواد النـــــال
والمحسنون لهم على إحسانهم يوم الإثابة عشـرة الأمثـــال
وجزاء رب المحسنين يجل عن عد وعن وزن وعن مكيـــال

ولما أقامت جماعة رعاية الأطفال حفلها بدار الأوبـرا، ألقـى حـافظ قصيدة دعا فيها إلى الإحسان والقصيدة التى ساقها تدور حول محسن ينجيه إحسانه من الموت تحت القطار ومن الغرق مبينا إذا قام الأغنياء بـاخراج الزكاة يقل عدد المحرومين والبؤساء:

أنجاة من القطار، من الجسر، من النهـر جـل رب الأنـام
وإذا صـيحة علت من فـتـاة برزت من صفوف ذاك الزحام
وقفـت موقف الخطيب ونادت تـلك عقبـى رعايـة الأيتـام
إن هـذا الكريم قدصان عرضى وحمانـى من عاديـات السقام
عال طـفلى وعالنى وحـبانـى بكسـاء وبـدرة وطعـــام

كما بين أن هذا الرجل الذى أنجاه الله من المـوت هـو عـضو هـذه الجماعة التى تساعد كل ملهوف بائس فقال:

وهو من معشر أغاثوا ذوى البؤ س وقاموا فى الله خير القيـام

ولما كان حافظ يرى ان عليه واجبا نحو البؤسـاء، فلابـد أن يعلـن صرختهم فى المجتمع وأن يهز المتغافلين عـن مـساعدتهم، وأن يـساند الجمعيات التى تقوم على رعايتهم سواء كانوا أطفالا أم أمهات، صغارا أم

كبارا، ويحس فى قرارة نفسه أن الخير الذى يجلبه لهؤلاء ، هو قبس الأمل ونور الرجاء. ولا ينسى أيامه الأولى التى ذاق فيها آلام اليتم فقال:

لم اقف موقفى لأنشد شعرا ... صـب فى قـالب بديع النظام
إنما قمت فيه والنفس نشوى ... من كئوس الهموم والقلب دامى
ذقت طعم الأسى وكابدت عيشا ... دون شربى قذاه شرب الحمام
فتقلبت فى الشقاء زمانا ... وتنقلت فى الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقبا فى فؤادى ... ومشى الحزن ناخرا فى عظامى
فلهذا وقفت استعطف النا ... س على البائسين فى كل عام

لقد أحس حافظ مأساة الطفولة المشردة إحساسا عنيفا. وكانت كل قصيدة يقولها تصف العلل وتبرز المأساة وتستدر أنبل ما فى الأغنياء من عواطف الإشفاق والرحمة.

وها هو يرى الجمعية الخيرية الإسلامية تمد يد العون إلى الأيتام الذين تقوم على تربيتهم وتنشئتهم تنشئة صالحة ، فيهزه صنيع الجمعية، ويرى ان عليه أن يشيد بها وبمعروفها، فيلقى قصيدة بين يدى السلطان حسين كامل حاكم مصر فى حفل أقامته الجمعية بدار الأوبرا السلطانية. وفى هذه القصيدة يتحدث على لسان أحد صنائع الجمعية الذى كان يتيما بائسا فكفلته الجمعية حتى اكتمل عقلا وعلما. ويكاد القارئ يستشف يتم حافظ. فآلام طفولته تطل من الأبيات التى تحدث بها اليتيم عن نفسه.

لم يبق من اهلى سوى ... ذكر تناساه الصحاب
أمشى يرنحنى الأسى ... والبؤس ترنيح الشراب

فلكم ظللت على طـــــوى يومى وبت على تبـــــاب
والجوع فراس لـــــــه ظفر يصول به ونـــــاب
فكأنـــه فى مهجتـــــــى نصل تغلغـــــل للنصـــاب

وهذا اليتيم قيض الله له الجمعية الخيرية التى فتحت له فى ظلام حياته بابا من أمل ونور، إذا علمته بمدارسها ورعته ببرها الذى شـــمله دون أن يحس من أحد منا ولا اذى

وجمـــال صنع البـــرأ لا يستشـــف له حجـــاب

والشعور الذى يعطف حافظا نحو الطفولة والدعوة للبر بها، كان دائما يتأجج فى نفسه فهو يمضى فى الحياة محروما من الاستقرار العائلى ومن حنان الأم وعطف الزوجة وتعلق الأبناء. فكان يحس فى أقصى ضـــميره بما يشعر به هؤلاء، ولذلك استمر يدعو للبر بهـــم . والإحـــسان إلـــيهم، بمساعدة الجمعيات القائمة على رعاية الطفولة:

قد أجبنا نداء كن وجئنـــــا نسأل القادرين بعض النوال
لو ملكنا عير المقال لجـــدنا إن جهد المقل حسن المقـــال

ونراه يشيد فى قصيدته التى أنشدها لأول مايو ســـنة ١٩٢٨ بجمعيـــة أعضاؤها من السيدات ذوات القلوب الرقيقة:

أى ذورات الحجال عشتن للبر ودمتن قدوة للرجـــــــال
لم يكونوا ليدركوا المجد لولا كن أو يسلكوا سبيل المعالى
قمن علمننا المروءة والعطف على البائسين والســـــؤال
قمن عملننا الحنان على الطفل شريدا فريســـة المغتـــال

ويتوجه إلى الحاضرين يطالبهم بالتبرع وتأييد دعوة الإحسان لا إلى هذه الجمعية وحدها ولكن إلى كل مشروع يحمل فى طياته برا بالمساكين:

أيدوا كل مجمع قام للبر بجاه يظلله أو بمال

وهنا يشمل حافظ بشكره رجال الإسعاف وما يؤدون من خدمات لتخفيف ويلات الإنسانية:

ورجال الإسعاف أنبل لولا شهوة الحرب من رجال القتال
يسهرون الدجى لتخفيف ويل او بلاء مصوب أو نكال
كم جريح لولاهم مات نزفا فى يد الجهل أو فى يد الإهمال
كم صريع من صدمة أو صريع من سموم مخدر الأوصال
كم حريق قد أحجم الناس فيه عن ضحايا تئن تحت التلال
يترامون فى اللهيب سراعا كترامى القطا لورد الزلال
لا لشئ سوى المروءة تحلو طعمها فى فم المرئ الموالى

وقصيدته هذه توضح أتساع دعوة البر عند المصريين وتقدم الوعى الاجتماعى لديهم ، مما ساعد على تخفيف دموع المنكوبين ، والمسح بيد الرحمة على آلام البائسين.

وحافظ لا يتوقف عن الدعوة لمساندة محافل البر فى قصائده فهو يرى فى نفسه حامى الطفولة والهاتف بدعوتها. ويفخر بأنه الشاعر الاجتماعى الذى يقف مع هؤلاء ففى مايو سنة ١٩١٩ يدعو إلى معاونة ملجأ الحرية الذى يأوى الأيتام وينشئهم تنشئة صالحة . ويقول فى قصيدته إن أغنياء مصر قد اتسعت فى نفوسهم عاطفة البر وأنهم اليوم غيرهم بالأمس.

لا تسئ ظنا بمثرينا فقد تاب عن آثامه واستغفرا

كان بالأمس وأقصى همـــه إن أتى عارفه أن يظهـــرا
فغـــــدا اليوم يواسى شعبه وهو لا يرغب فى أن يشكرا
نبهت عاطفة البر بـــــــه محنة عمت ومقدار جـــــرى

ويرى أن هذا التراحم بين الطبقات لم يعد مظهرا من مظاهر الإيمـــان بالدين والعمل بمقتضاه، بل يراه إيمانا بمصر وحقها عليهم فى أن يتعاهـــد أبناؤها على دفع الأذى، وان يتواصوا فيما بينهم بالبر حتى يصير شـــعب مصر شعبا صالحا متآزرا، أبناؤه أعضاء جسد واحد إن شكا منه عـــضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وما أروع حافظا الذى بر بالطفولة والدعوة لعونها واســـتنقاذها مـــن براثن الجهل والفقر والمرض، إذ رأى بعينه أن هناك طائفة أخرى من بنى وطنه تستحق أن يدعو لها ويعلن عن بؤسها وحاجتها إلى العناية والرعاية والإصلاح، وهى طائفة المكفوفين الذين سلبتهم الأقدار نعمة الإبصار، فإذا كانت جمعيات الطفل قد نالت قسطا وافرا من شعره وعطفه فإن جمعيـــة إعانة المكفوفين هى الأخرى كانت ضمن اشعار حافظ فى حفلها الذى أقيم بالأوبرا فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٦ فألقى قصيدة اســـتجدى بهـــا أكـــف المحسنين لبناء مدرسة لهؤلاء المكفوفين الأحـــداث مؤكـــدا حقهـــم علـــى إخوانهم الذين يملكون المال ونعمة البصر:

إن حق الضرير عنـــد ذوى الإبـــ صار حق مستوجب التقديس
لم يضـــره فقدانـــــه نور عينيـــــ ه إذا اعتـــاض عنهما بأنيس
آنســـوا نفســـه إذا أظـــلم العيـــــ ش بعلم فالعلم أنس النفـــوس

وحافظ فى معرض استنهاض الهمم لوح للمتبرعين بالفائدة التى قد يجنيها المجتمع من صنيعهم فربما أنجبت مدرسة العميان عبقريا يكون فى مجتمعه أديبا مثل طه حسين عميد الأدب العربى أو غيره فيقول:

أكملوا نقصه يكن عبقريا ... مثل " طه " مبرزا فى الطروس

كم رأينا من أكمه لا يجارى ... وضرير يرجى ليوم عبوس

وبهذا يؤكد حافظ الحق المعلوم فى مال كل غنى لأخيه فى الوطن الذى نكبته الحوادث وجار عليه الزمن. بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا فهو يؤكد معنى التكافل الاجتماعى بين أبناء الوطن مما يعد أحدث ما تتجه إليه التشريعات الاجتماعية فى العصر الحديث.

وحافظ ابراهيم الذى اتسعت نفسه لآلام أمته، ورقت عاطفته الكبيرة لآلام الناس التى نكبتها الحياة بدأت نفسه تتسع ، وعاطفته الإنسانية العالية تمتد لتتأثر بمصائب الإنسانية كلها. فهو يقول بلغته العربية شعرا يصور به آلام البشرية خارج الديار المصرية تصويرا رائعا فيه كل معانى التألم لآلام الآخرين والرثاء لهم واستدرار العطف عليهم ففى عام ١٩٠٢ وقع بركان فى منطقة المارتنيك إحدى جزر الهند الغربية الفرنسية، فأشار حافظ إلى كثرة ضحاياه معبرا عن إحساسه بالألم للفجيعة التى تعرض لها البشر هناك

وفى عام ١٩٠٨ كان زلزال "مسينا" قد أصاب الإيطاليين بكثير من عنت الأقدار والخراب والدمار فتهز هذه الحوادث حافظ هزا عنيفا وتحرك فى قلبه مشاعر الإنسانية وعواطف الرحمة والمواساة. فيبدأ فى وصف الزلزال بالحديث عن غضب الطبيعة على الإنسان، وغضب البر والبحر

على البشر، ويصف مظاهر ثورة الطبيعة وخسفها بلدة مسينا وإغراقها. وزرعها للموت فى كل مكان ثم ينتقل إلى ناحية من الوصف تمس العواطف الإنسانية مسا عنيفا. وتهز المشاعر هزا لا تعرف معه طعما للقرار والهدوء فيقول:

رب طفل قد ساخ فى باطن الأر ... ض ينادى : أمى ، أبى، أدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ ... ـر تعانى من حرة ما تعانى
وأب ذاهل ، إلى النار يمشى ... مستميتا تمتد منه اليدان
باحثا عن بناته وبنيه ... مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه لا هو تاج ... من لظاها ولا اللظى عنه وانى

وهكذا وصف حافظ ثورة الطبيعة وصفا مشخصا يبعث فى نفس القارئ من الصور والأخيلة ما يثير انفعالات الخوف والجزع والأشفاق:

بغت الأرض والجبال عليها ... وطغى البحر أيَّما طغيان
تلك تغلى حقدا عليها فتنشق ... انشقاقا من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجما وقذفا ... بشواظ من مارج ودخان
وتسوق البحار ردا عليها ... جيش موج نائى الجناحين دانى
فهنا الموت أسمر اللون جون ... وهنا الموت أحمر اللون قانى

كما يعبر حافظ عن الجانب التصويرى للحادث فيقول:

ألبسوك الدماء فوق الدماء ... وأروك العداء بعد العداء
فلبست النجميع من عهد قابيـ ... ـل وشاهدت مصرع الأبرياء
فلك العذر إن قسوت وإن خنـ ... ـت وإن كنت مصدرا للشقاء
غلط الناس، ما طغى جبل النا ... ر بإرسال نفثه فى الهواء

لأحرجوا صدر أمة فأراهم ... بعض ما أضمرت من البرحاء
أسخطوها فصابرتهم زمانا ... ثم أنحت عليهم بالجزاء
أيها الناس إن يكن ذاك سخط الـ ... أرض، ماذا يكون سخط السماء؟
إن فى علو مسرحا للمقادير ... ر وفى الأرض مكمنا للقضاء
فاتقوا الأرض والسماء سواء ... واتقوا النار فى الثرى والفضاء

أما عن موقف حافظ من المرأة، فقد أدرك خطرها فى الحياة المصرية، خاصة بعد أن أشرق نور العلم عليها وفتح أمامها آفاقا من التطلع إلى الرقى والتقدم، كلما حظيت بنصيب من الثقافة، وكلما تفتحت أمامها أبواب الاتصال بالحياة.

وعندما دعا قاسم أمين إلى تحرير المرأة وألف لتوضيح دعوته كتابين هما "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة" وكان لدعوته صدى مقاومة عنيفة من الذين تذرعوا بحجة الدين فى مهاجمته. وقف حافظ إلى جوار قاسم أمين يسانده بشعره ويشد من أزره فنشر قصيدة عنوانها "إلى محرر المرأة" يقول فيها:

أقاسم إن القوم ماتت قلوبهم ... ولم يفقوا فى السفر ما أنت كاتبه
إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم ... فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه
فلو أن شخصا قام يدعو رجالهم ... لوضع نقاب لاستقامت رغائبه
ولو خطرت فى مصر حواء أمنا ... يلوح محياها لنا ونراقبه
وفى يدها العذراء يسفر وجهها ... تصافح منا من ترى وبخاطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد ... وجيش من الأملاك ماجت كواكبه
وقالوا لنا رفع النقاب محلل ... لقلنا نعم حق ، ولكن نجانبه

ففى هذه الأبيات تبدو سخرية حافظ من المعارضين لتحرير المرأة فهو يعلل صدهم عن دعوة قاسم بأنهم لا يفهمون الصواب، ولا يسلكون سبيل الحق، ولا يتبعونه ويغلو حافظ فى سخريته منهم مبينا انهم لا يؤمنون بدعوة الحق التى يدعو إليها قاسم أمين. غير أن حافظ يبدو عليه الخوف والتردد فى مناصرة قضيتها، فنراه فى قصيدته التى قالها فى مدرسة البنات ببورسعيد فى ٢٩ مايو سنة ١٩١٠ يقف موقفا وسطا بين المغالين فى المطالبة بحرية المرأة ، وبين الذين يتزمتون ويرون الحَجْرَ على حريتها وإهمال وجودها وكأنها متاع يقتنى . فيقول:

من لى بتربية النساء فإنها ... فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا اعددتها ... أعددت شعبا طيب الإعراق
الأم روض إن تعهده الحيا ... بالرى أورق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الألى ... شغلت مآثرهم مدى الآفاق

ولكنه يحسب حسابا للرأى العام وموقفه من المرأة، ويحرص على أن يسترضيه ليبقى على إعجابه به باعتباره الشاعر الاجتماعى فيرتد عن الصراحة وعن مجابهة الرأى العام التى عرفناها منه عند بدء دعوة قاسم أمين، ويقول:

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا ... بين الرجال يجلن فى الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازع ... يحذرن رقبته ولا من واقى
يفعلن أفعال الرجال لواهيا ... عن واجبات نواعس الأحداق
فى دورهن شئونهن كثيرة ... كشئون رب السيف والمزراق

وهكذا يمسك العصا من وسطها لا يؤيد التحرر السافر ولا التقييد الذى عفا عليه الزمن فيقول:

كلا ولا أدعوكم ان تسرفوا ... فى الحجب والتضييق والإرهاق
ليست نساؤكم حُليًا وجواهرا ... خوف الضياع تصان فى الأحقاق
ليست نساؤكم أثاثا يقتنـــى ... فى الدور بين مخادع وطبـــاق
تتشكل الأزمان فى أدوارها ... دولا وهن على الجمود بواقـى

فحافظ يدعو إلى حال وسط بين الطرفين المتنـازعين حتـى يرضـى أنصار التجديد والمحافظين على التقاليد معا فيقول:

فتوسطوا فى الحالتين وانصفوا ... فالشر فى التقييـد والإطـــلاق
ربوا البنات على الفضيلة إنها ... فى الموقفين لهن خير وثـــاق
وعليكم أن تتبين بناتـــــكم ... نور الهدى وعلى الحياء الباقـى

ولا يتعرض حافظ لحقوق المرأة المصرية فى المجتمع، ولا يدافع عن قضيتها بعد وفاة قاسم أمين ، وإنما يكتفى بتسجيل نـشاطها الاجتمـاعى ومساهمتها فى جمعيات الطفولة وملاجئ الأيتام، أو مساهمتها فى الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ كمظاهرة السيدات المصريات وغيرها.

ويستمر حافظ فى قصائده يتتبع أخبار وطنـه وأوضـاعه الـسياسية والاجتماعية وعندما فجعت مصر بوفاة زعيم الأمة سعد زغلول قام حافظ بكتابة قصيدة رثاء أنشدها فى الحفل الذى أقيم لتأبين الفقيد فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٧م فيقول:

إيه يا ليل هل شهدت المصابـا ... كيف ينصب فى النفوس انصبابا؟

بلغ المشرقين قبل انبلاح الصبـــح أن الرئيـــس ولى وغابـــــــا
وانع للنيرات (سعدا) فـ (سعـــد) كان أمضى فى الأرض منها شهابا
قديا ليل من سوادك ثوبـــــــا للدرارى وللضحـــى جلبابـــــــا
انسج الحالكات منك نقابـــــــا واحب شمس النهـــار ذاك النقابـــا
قل لها: غاب كوكب الأرض فى الأر ض فغيبى عن السمـــاء احتجابـــا
والبسينى عليه ثوب حـــــــداد واجلسى للعـــزاء فالحزن طابـــــا
أين (سعد) ؟ فذاك أول حفـــــل غاب عن صدره وعاف الخطابـــا
لم يعود جنوده يـــوم خطـــــــب أن ينادى فلا يـــرد الجوابـــــا
عل أمرا قد عاقـــه، عل سقمـــــا قد عراه ، لقـــد أطال الغيابـــا
أى جنود الرئيس نـــادوا جهـــارا فإذا لم يجب فشقـــوا الثيابـــا
إنها النكبة التى كنـــت أخشـــــى إنها الساعـــة التى كنت أبـــى
إنها اللفظة التى تنســـــق الأنـــ فس نسقـــا وتفقر الأصـــلابـــا
مات (سعد)، لا كنت يا (مات سعد) أسهامـــا مسمومـــة أم حرابـــا
كيف أقصدت كل حى علـــى الأر ض وأحدثت فى الوجود انقلابا؟
حســـرة عند أنـــة عـــــن آه تحتها زفرة تذيب الصلابـــــا
قل لمن بات فى (فلسطين) يبكـــى إن زلزالنـــا أجل مصابـــــا

هذا عن قصائد حافظ وأفكاره عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية، ويتبقى الحديث عن حافظ كشاعر رائع النكتة يمتلك الفكاهة الحلوة والنوادر المستملحة ، وهو ما سنتعرض له فى الفصل التالى.